الشروط الواجب توافرها في دارس التاريخ الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ .

(أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار).

وبعد :

فإن موضوع التاريخ الإسلامي من الموضوعات الهامة والدقيقة التي يكثر الحديث حولها وتدور فيها نقاشات طويلة بين المثقفين عامة والمعنيين بالفكر الإسلامي خاصة . وكثيرا ما نسمع أسئلة من نوع :

كيف ندرس التاريخ الإسلامي ؟ ومـــن له الحق في دراسة التاريخ الإسلامي ؟ ثم بعد ذلك كيف نفسر تاريخ الأمة الإسلامية ؟ وما هي المصادر الموثوقة التي يمكن أن نتلقى منـــها تاريخنا ؟.

فالتاريخ هـــو سجل للحوادث التي تقع للإنسان في الزمان ، ولذلك نجد الإمام محمد بن جرير الطبري يبدأ تدوينه للتاريخ بالحديث عن الزمان ومعناه .

ثم لا بد من أسباب تقع بها الحوادث في زمان بعينه ، وفي هذا رد على من زعم أن الحوادث تقع بالصدفة المحضة ، وهناك عامل أساسي آخر يجعل هذه الحوادث تأخذ في كل حالة شكلا متميزا ، وهذا العامل هـــو الإرادة الحرة للإنسان ، والتي على أساسها يكون تنوع الحوادث . ومن هنا نعلم خطأ من يقول (إن التاريخ يعيد نفسه) ، إذ أن مقتضى هذا القول هو أن الإنسان بعينه يتكرر في التاريخ ، نعم قد تشترك الحوادث في سمات وملامح عامة ، لكنها لا تتطابق ، فالناس لا يتكررون بأعيانهم ، ولا بالصفات الكاملة لأعيانهم ، لكن هذا الاختلاف لا يعني عدم وجود اتفاق ، وإلا لما أمكن التنبوء بشيء مما يقع في المستقبل ، و لم يتمكن البشر من أن ينقلوا خبراتهم ومعارفهم من جيل إلى جيل .

وهذا لا يتم إلا بثبات السنن الربانية التي تحكم الحوادث والأشياء ، هذا الثبات الذي يجعل الاعتبار بالتاريخ ومحاولة الاستفادة من الحوادث السابقة أمرا ممكنا ، عن طريق تجنـــب الأسباب التي تؤدي إلى الشر ، والأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى الخير ، ولذلك نجد القـــرآن الكريم كثيرا ما يتكلم عن الأمم السابقة ويدعو إلى النظر في سيرها والاعتبار بمآلها .

على أن هناك عاملا أساسيا يأتي على رأس هذه العوامل المؤثرة في التاريخ البشـــري ، بل هو منشئ هذه العوامل كلها ، ومنشئ ما يترتب عليها من آثار ، وهو الإرادة الإلهيـــة ، فالله ـــ سبحانه وتعالى ـــ هو خالق الكون والزمان والمكان والإنســـان ، وهـــو مســـبب الأسباب التي تجري بها الحوادث في التاريخ .

إن القول بالإرادة الإلهية يقتضي الإيمان بالقدر وهو أحد أركان الإيمـــان في العقيـــدة الإسلامية ، وهذا القدر لا يلغي حرية الإنسان وإرادته التي يترتب عليها استحقاقه للثـــواب والعقاب .

إن الإيمان بالمشيئة الإلهية وأثرها في الأحداث ، وعلاقتها بالسبب والمســـبب يجعلنـــا ندرك كيف يمكن أن تجري الأحداث على شكل مختلف في الزمان والمكان نفسه ، وكيـــف يختلف المجتمع المؤمن عن المجتمع الكافر رغم خضوعهم لظروف موحدة .

ولقد سخر أدعياء العلم من القائلين بأثر المشيئة الإلهية في التاريخ ، وزعموا أن الذين يؤمنون بها هم أصحاب التفكير الديني .

فهم يرون أن هناك منهجين اثنين لدراسة التاريخ وتفسيره وهما :

١ــ المنهج العلمي المستند إلى القوانين المادية الظاهرة ، التي يرون أنها تحكم كل مظهر من مظاهر العمران البشري .

٢ــ المنهج الديني الذي يصدق بالغيبيات وما وراء الطبيعة .

إننا نحن المسلمين نرى أنه حتى يكون المنهج علميا فلا بد ألا يتعارض مع الدين الصحيح ، فنحن لا نفرق بين العلم والدين ، ونرى أن أصدق الحديث هو الوحي الديني المنزل من عند الله ــ تعالى ــ والدين عندنا هو العلم ، والدين عندنا يرى أن الشيء حتى يكون إسلاميا فلابد أن يكون علميا ، فالقسمة عندنا هي (علمي وغير علمي) أو (ديني وغير ديني) ، فالتفريق بين العلم والدين فكرة طارئة علينا جاءتنا من الغرب ، وقد ظهرت هذه الفكرة في أوربا نتيجة صدام بين دين محرف فيه القليل من العلم والكثير من الخرافة ، ومنهج تجريبي لا يعترف إلا بما يقع في دائرة المحسوس .

لقد وقفت الكنيسة النصرانية من العلماء التجريبيين الأوربيين موقف العداء لسبب ظاهر وهو أن النتائج التي يتوصلون إليها تصادم العقائد النصرانية ، ولسبب مستتر وهو أن هؤلاء قد تأثروا بالمنهج العلمي التجريبي عند المسلمين ، وهو المنهج الذي لم يكن ليظهر لولا ما فهمه العلماء المسلمون من دعوة القرآن الكريم إلى النظر في ما حولنا والتفكر فيه ، فهو منهج نشأ أساسا بفضل الإسلام وانتقل بعد ذلك لأوربا ، ولكن الكنيسة وقفت منه موقف العداء وضيقت على العلماء التجريبيين الغربيين ، بل وصل بها الأمر إلى حد قتل من لم يعلن توبته ويناقض ما توصل إليه من علم نتيجة البحث والتجربة .

في هذا الجو المشحون بالعداء والصراع بين الجانبين نشأت هذه القسمة الجائرة بين ما هو ديني وما هو علمي ، ودفعت العلماء الأوربيين إلى الكفر بالدين ومعاداته .

خصوصية التاريخ الإسلامي :

من هنا ينبغي أن نتوقف عند مسألة مهمة وهي خصوصية تاريخ الأمة الإسلامية ، وعندما نقول إن تاريخ الأمة الإسلامية تاريخ خاص فإننا لا نقول ذلك استعلاء في الأرض واستكبارا على عباد الله ، وليس ذلك ناتج عن عنصرية أو فخر عرقي جاهلي ، بل نقول

ذلك عقيدة إيمانية اقتضت أن تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، و هذه الأمة التي جعلها الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ شاهدة على الناس تختلف عن غيرها من الأمم في اعتقادها وعلمها وعملها وتاريخها الذي هو التطبيق العملي للإسلام ، تحكمه مثل الإسلام وقيمه الخالدة .

هذه الأمة التي بعث فيها النبي الخاتم ﷺ بالرسالة الخاتمة ، التي شاء الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ أن تكون هي الرسالة الباقية إلى يوم القيامة ، والتي لا يقبل الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ دينا غيرها ، هذه الأمة التي أولها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ـــ رضي الله عنهم ـــ ذلك الجيل الذي لن يتكرر في التاريخ مثله ، وكيف لا يكونون كذلك ؟! وقد أشرف على تربيتهم وتعليمهم رسول الله ﷺ وقد كان جيل الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ هو الجيل المثالي الذي جعله الله تعالى قدوة لمن بعدهم ، ودليلا على أن الإسلام دين عملي واقعي يمكن تطبيقه في دنيا البشر .

والتاريخ الإسلامي ليس على درجة واحدة من الخصوصية ، بل هو مراتب ، أعلاها فترة النبوة ، ثم فترة الخلافة الراشدة ، ثم فترة التابعين ومن بعدهم ، وفترة النبوة فترة خاصة ليس في تاريخ البشرية فحسب ، بل في تاريخ الأمة الإسلامية أيضا ، فهي لها سننها التي تحكمها زائدة على السنن العامة للتاريخ البشري والسنن الخاصة للتاريخ الإسلامي .

ونحن لا ندعي أن تمثل أجيال الأمة لقيم الإسلام ومثله وتعاليمه كان بنفس القدر الذي تمثلته القرون الأولى ، بل إننا نعلم أن المسلمين الأوائل أنفسهم كانوا على درجات مختلفة في تطبيقهم للإسلام ، فحتى الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ كان فيهم العشرة المبشرون بالجنة وغيرهم من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدرا وما بعدها ، وفيهم مسلمة الفتح ، وفيهم من أسلم بعد عام الوفود ، وفيهم من كانت صحبته لرسول الله ﷺ طويلة ، ومن صحبته غير ذلك .

كل هؤلاء على اختلاف درجات تمثلهم للإسلام كانوا محكومين بتلك المثل والأخلاق والتعاليم الإسلامية ، يجدون في هذا الدين العظيم ما يسعهم كلهم ، ويجعل حظهم منه بمقدار تطبيقهم له في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم . فتاريخ الأمة الإسلامية هو التطبيق

العملي للإسلام في صورته الواقعية ، وقد حكم الإسلام الأمة بمثله وقيمه وأخلاقه في شتي عصورها ، وكان ذلك التطبيق أكمل مـــا يكون في فترة النبوة ثم في جيل الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ ثم جيل التابعين وجيل أتباع التابعين ، من أهل القرون الثلاثة المفضلة على لسان رسول الله ﷺ كما في الـــحديث الصحيح : " خـــير الناس قـــرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .

رغم هذه الخصوصية التي أشرنا إليها إلا أن هذا التاريخ تصدى لدراسته مؤرخون غير مؤهلين لدراسته من غير المسلمين ، ومن المسلمين الذين تربوا على مناهج غربية أو شرقية ، وهي على اختلافها تقوم على مبادئ إلحادية وضعية ، تستند إلى أسطـــورة وهمية تســـمى بالقانون الطبيعي . وهذه الفكرة ـــ رغم قدمها ـــ إلا أنها نبشت في العصر الحديث وألبست لبوس العلم بعد شيوع مبدأ الحتمية التاريخية ، بل تعدى تأثيرها إلى العلوم الإنسانية كافـــة ، فالعالم من وجهة النظر هذه يحكمه قانون طبيعي عام هو الذي يسير الأشياء ويحركها في هذا الكون ، وهذا القانون ـــ كما يرى مخترعوه ـــ يسير بقوة دفع طبيعية حتمية لا يستطيع أحد دفعه ، ولا تتخلف أحكامه ولا تفرق بين مؤمن وملحد .

ومن هنا نرى أن أكبر جناية في تاريخ الإسلام جاءت أساسا من باب تفسير التاريخ ذلك أن المناهج التي فسرت تاريخ الإسلام وفقا للمنهج العلماني لتفسير التـــاريخ ـــ وهـــو منهج ليس قاصرا عن تفسير التاريخ الإسلامي فحسب ـــ بل هو قاصر عن تفسير أي تاريخ بشري ، بسبب قصور أساسي فيه .

ولكي نلم بهذه الحقيقة لا بد من تقديم فكرة مختصرة عنه . فكلمة علماني لا تعـــني القائم على العلم وإنما هي فهم خاص لمعنى العلم فكلمة علماني تعني التفكير المادي الـــذي لا يؤمن إلا بالمحسوس واستبعدت المغيبات تماما من مجال بحثها بل لا تسلم أصـــلا بوجودهـــا ، ولقد ظهر هذا المنهج المادي في الغرب كرد فعل للمنهج الروحي المستمد من المسيحية الذي يحط من قيمة المادة ويعلل الحوادث والأشياء بالمشيئة الإلهية وحدها .

وقد جاء نتيجة الارتداد إلى التراث المادي الإغريقي ، وهو الارتداد الـــذي أفســـد مناهج البحث حيث يقوم على أساس القول بمبدأ التطور الذي جعل بديلا عن الخلق الـــذي

تقول به المسيحية في تفسير الأشياء والأحداث ، وهو وإن كان مبدأ أساسيا في الرسالات السماوية جميعها إلا أنه تعرض للتحريف عند المسيحيين و لم يبق على فهمه السليم إلا في الإسلام ومصادره الأساسية من الكتاب والسنة .

نتيجة لذلك رفض علماء الطبيعة الأوربيون مبدأ الخلق وقالوا بالتطور في جو مشحون بالتغييرات السياسية والاجتماعية التي كانت تجتاح أوربا بعنف أوائل القرن التاسع عشر ، والتي كانت تتخذ في بعض الأحيان شكل ثورات عارمة تهدف إلى هدم الوضع القديم والوصول إلى أنماط اجتماعية جديدة تقوم على أسس مختلفة ، أدت إلى التشكيك في كثير من مسلمات الدين المسيحي ومنها مبدأ الخلق ، وكان هذا المبدأ يتعرض للهجوم على يد المفكرين الذين تأثروا بالفلسفة الميكانيكية الآلية التي أدى إليها تقدم الأبحاث العلمية في المجالات المختلفة ، كل ذلك جر إلى المبالغة في إمكانية العلم البشري والإيمان بقدرة الإنسان المطلقة على التقدم والاستطاعة غير المحدود على التخلص والتحرر من كل القيود التي تحد من سعيه إلى تحقيق سعادة أبدية لنفسه على هذه الأرض .

ومن هنا نجد أن التطوريين يعيدون تفسير التاريخ الإنساني على أساس أسطوري باسم العلم ، إن التفكير الأسطوري في تاريخ البشرية إنما يأتي نتيجة حتمية لغيبة العلم الصحيح بالحقائق التي يرتكز عليها تاريخ العالم ، هذا العلم الذي أضاعته الأمم السابقة بتحريفها لكتب الله التي استحفظهم إياها ، والذي شاء الله أن يبقى في القرآن الكريم دون تحريف ، ولقد بقيت آثار منه في التوراة على ما فيها من تحريف ، إلا أنها أصبحت مرفوضة من العلماء الغربيين بسب كفرهم بالتوراة وجهلهم وصدودهم عن الإيمان بالقرآن الكريم ، هذا المصدر الصحيح الوحيد للمعرفة الصحيحة في أصول الأشياء ، لذلك لم يجد الفكر العلماني أمامه إلا أن يفعل مثلما فعلت الشعوب القديمة وهو أن يملأ الفجوات في تاريخ البشرية بالخيال الأسطوري .

إن العجز عن التعليل ـــ أي معرفة العلاقة الصحيحة بين السبب والمسبب مع غيبة الإيمان بالإله الخالق المبدع ، وفقدان العلم الصحيح أدى إلى هذا الطوفان الهائل من التفسيرات الخاطئة ، التي قام بها التفكير الغربي للعالم ، استنادا إلى بعض المعلومات الحسية

القاصرة عن الظواهر المادية ، وقد أدى هذا العلم إلى بناء هياكل ضخمة وشاملة للمعرفة لا تستند إلى علم صحيح على أساس من بعض المعلومات الجزئية المبتورة في مجالات المادة الجامدة والحية في مجال النفس البشرية والاجتماع الإنساني .

وإذا كان الفكر الوثني الساذج معذورا في لجوئه إلى الأسطورة فإن الفكر الغربي الذي ألزم نفسه بقواعد منهجية لا عذر له في ذلك .

ومن هنا جاء الاعتراض على خصوصية التاريخ الإسلامي ، ولكننا نصر على أن تاريخنا تاريخ خاص ونرى أنه من أجل هذه الخصوصية فإنه يجب أن تتوافر شروط أساسية في من يتصدى لدراسة تاريخ الأمة الإسلامية وتفسيره ، وهذه الشروط هي :

أولا : **الإخلاص والتجرد** :

إن هدف الباحث يجب أن يكون طلب الحق أين كان وكيفما كان ، بخلاف من يلتمس الحجج والأدلة التي تؤيد رأيا خاصا رآه ، أو فكرة مسبقة يتبناها ، ولقد دخل من هذا الباب أكثر التشويه في تاريخ الإسلام قديما وحديثا .

فالشعوبية والزنادقة وأهل البدع والأهواء والباطنية قديما دسوا كثيرا من الروايات الكاذبة والأخبار المشوهة على تاريخ الإسلام ، وفي العصر الحديث تولى كبر ذلك المستشرقون المتعصبون والمنصرون الحاقدون ، الذين دأبوا على تتبع العثرات وإعلائها ، واقتناص الهفوات وتضخيمها ، لتشويه الحقائق وطمسها ، وتحريف الوقائع والتقليل من شأنها إذا لم يتمكنوا من التشكيك بها .

بل إن الملحدين منهم إذا كتبوا عن تاريخ الإسلام تيقظت فيهم الروح الصليبية الكامنة ، ونسوا الحياد المزعوم والموضوعية والنزاهة العلمية التي يتشدقون بها .

وهذا لا يعني أنه ليس فيهم من أنصف الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ونعوا على زملائهم موقفهم غير المنصف من الإسلام . فهذا جوستاف لوبون يعلل ظاهرة التحامل على تاريخ الإسلام ويبين فضل المسلمين على الحضارة الإنسانية فيقول :

" ربما يتساءل القارئ : ولماذا غَمط اليومَ حقَ العرب وتأثيرَهم ، وأنكر حسناتهم علماءُ عرفوا باستقلال أفكارهم ، وكانوا ـــ بحسب الظاهر ـــ بمعزل عن الأوهام الدينية ؟

وهذا السؤال قد سألته نفسي ، وأرى أنه لا جواب عليه غير ما أنا كاتب .. ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مما هو حقيقي ، ونحن لسنا أحرارا على ما نريد في خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا رجلين :

الرجل الحديث الذي صاغته دروس التهذيب ، وعملت البيئة الأدبية والمعنوية في تنشئته ، والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد ، وبروح لا يعرف قراره ، يتألف من ماض طويل ، وهذا الروح اللاشعوري هو وحده الذي ينطق في معظم الرجال ، ويبدو في أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التي اعتقدوها ، ويملي عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حدا عظيما من الحرية في الظاهر فتحترم ...

.. لا جرم أن أشياع محمد [ﷺ] كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوربا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد (شارل مارتيل) ، وفي الحروب الصليبية ، وبعد استيلائهم على الآستانة ، يذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، وإلى أمس الدابر لم ننج من تأثيراتهم ، ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءا من نظامنا ، وكانت هذه الأوهام طبيعية متأصلة فينا ، كالبغض المستتر أبدا في أعماق قلوب النصارى لليهود ...

وإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة في إنكار فضل المسلمين هذا الوهمَ الموروثَ أيضا النامي في كل جيل ، بفعل تربيتنا المدرسية الممقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتتنا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر سبيل أن تأثير العرب البليغ في تاريخ مدنية أوربا قد تم تجاهله . ويرى بعض أرباب الأفكار أن من المذل على الدوام الذهابَ إلى أن أوربا النصرانية مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش . وهناك أمر يحمل في مطاويه ذلا كثيرا في الظاهر لا يُقبل تحمله إلا بشيء من العنت . وذلك أنه كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل والعناصر المختلفة التي دانت بالإسلام ، وبنفوذهم الأدبي هذبوا الشعوب البربرية التي قضت على الإمبراطورية الرومانية ، وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوربا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله وعلى ذلك كان العرب أساتذتنا مدة ستمائة سنة " .

على أن هذا وأمثاله وإن خلصوا من التحامل الظاهر والمستتر على التاريخ الإسلامي ؛ فإنهم لن يخلصوا من تأثير معتقداتهم الخاصة ومذاهبهم العلمية التي يتبعونها ، فهـــذا لوبـــون نفسه وهو وإن كان أنصف العرب إلا أنه تحامل على تاريخ فئة أخرى من المسلمين وهـــم الأتراك بناء على مذهبه في التفسير العرقي للتاريخ .

وكلنا يعلم الجناية التي جناها المنهج الماركسي عل التاريخ الإسلامي وتصويره بأنـــه مجرد نزاع بين الطبقات بناء على القول بأن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيـــد المحـــرك للتاريخ . وكم أشاد أتباع هذا المذهب بالحركات الباطنية كالقرامطة وصاحب الزنج ومـــا يشبهها وصوروها على أنها ثورة المستضعفين والطبقات الكادحـــة ضـــد ســـيطرة الطبقـــة الأرستقراطية الحاكمة واحتكارها لوسائل الإنتاج .

من هنا نعتقد أن الباحث غير المسلم ، والمسلم الذي تربى على منهج غير إسلامي لا يستطيع أن يفهم التاريخ الإسلامي على وجهه الصحيح ـــ حتى لـــو أراد ـــ لأن التجـــرد المطلوب منه مسألة ليست في إمكانه .

ثانيا : **الخبرة باللغة العربية وأساليبها** :

لقد بذل المستشرقون جهدهم في دراسة اللغة العربية وأنشأوا لذلك كثيرا من المراكز المتخصصة في بحث اللغة وآدابها ، ولا ننكر أن بعضا منهم كان له إسهام في طبع كثير مـــن أمهات الكتب في التراث العربي ، لكن اللغة العربية بحكم تكوينها الخاص وتركيبها المعجـــز تظل لغزا يستعصي على الفهم والتذوق مهما حاول الباحث الغريب عنها .

ولقد كتب الكثيرون من المستشرقين وتلامذتهم من المستغربين عـــن عجـــز العربيـــة وضعفها عن استيعاب المصطلحات العلمية وعن تفككها ، فاللغة العربية ـــ كما يقولون ـــ لغة تركيبية وليست لغة تحليلية مثل اللغات الآرية ، يقول رينان :

" إنه ينقص الساميين عـــامة إحدى درجات التراكيب التي نعتبرها ضرورية للتعبير عن الفكر تعبيرا كاملا ، فآخر ما يعنون به ضم الكلمات في جملة واحدة ، وهم لا يفكرون في ضم الجمـــل نفسها بعضها إلى بعض فأسلوبهم ، كما يقول (أرسطو طاليس) : هو الأسلوب (اللانهائي) الذي يتبع طريقة الجزئيات المتراكمة ، التي تتعارض والجملة الكاملة في

تجانسها المعروفة في اليونانية واللاتينية ، فالشيء المفضل عندهم في البلاغة ، كما هو الحال في المعمار ، هو الزخرفة العربية المعروفة ... إن الأسلوب السامي ينقصه نقصا تاما الرؤية عن بعد ، ذلك بأن اللغات السامية مبسوطة بسطا ، ولا تأخير فيها ولا تقديم ، فهي لا تعرف مـــن طرائق التعبير غير قرن الأفكار بعضها ببعض .. وارتباط الجمل بعضها ببعض لا يكون في العربية إلا بطريقة واحدة في الربط بحرف الواو أو حرف الفاء يلصق بالكلمة الأولى من الجملة التالية .. ذلك لأن عجز التفكير العربي ـــ كما يقول جوتييه ـــ عن التسلسل الفكري والتحليل الذي يتضح في لغتهم هو السبب في عجزهم مع التفكير المنطقي " .

وقد وجد هذا القول من العرب أنفسهم من يردده ، فهذا أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) يقول : " إن طبيعة العقل العربي لا تنظر نظرة شاملة للكون محللة لأسسه وعوارضه كما هو شأن العقل اليوناني بل يقف فيها على مواطن خاصة تثير عجبه ، فهو إذا وقف أمام شجرة لا ينظر إليها من حيث هي كل ، وإنما يستوقف نظره شيء خاص فيهـــا كاســـتواء ساقها أو جمال أغصانها . و هذه الخاصية في العقل العربي جعلته يهتم في أدبه بالجزئيات ونتج عن ذلك أن قصر نفس الشاعر فلم يســـتطع أن يـــأتي بالقصـــائد القصصـــية (كالإليـــاذة والأوديسا)" .

ويقول عز الدين إسماعيل في كتابه (الأسس الجمالية في النقد العربي) :" ولسنا نريد هنا أن ندخل في دراسة تفصيلية لطبيعة اللغة العربية ، ونكتفي بأن نذكر أن خبرتنـــا بهـــا ، والمفهومات التي سادت بين علمائها ، فضلا عن الناطقين بها ، كلها تؤكد أن طبيعة هـــذه اللغة طبيعة تركيبية وليست تحليلية " .

إن هذا الوهم إنما دخل على هذه العقول من عجزهم عن النفاذ إلى سر العربية ومـــا تميزت به على جميع لغات الأرض ، واستحقت بسببه وبأسباب أخرى أن تكون مســـتودع وحي الله الذي تعجز كل عقول الفلاسفة التحليليين في الشرق والغرب معا أن تـــأتي بآيـــة واحدة منه ، هذا السر البديع هو(الإيجاز) الذي جاء في القرآن الكريم على مستوى أعجـــز بلغاء العرب أنفسهم .

إن التسلسل والترابط والتحليل في اللغة العربية إنما يأتي على أسس مخالفة لأسلوب اليونانيين ولغتهم ، ولذلك بين علماء المسلمين أن المنطق اليوناني لا يصلح في مجال العلوم الإسلامية والتفكير الإسلامي ، واعتمدوا في ذلك على منطقهم الخاص المستمد من خصائص اللغة العربية ، فالإيجاز بالحذف في العربية لا يكشف عن عجز عن الربط والتحليل كما يدعون ، وإنما يكشف عن أسلوب خاص في العربية يقول عنه عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) :

" هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن ".

فالبديل عن المحذوف في اللغة العربية ليس فراغا ولا عجزا و إنما قد يكون هذا المحذوف حرفا أو كلمة أو جملة أو أكثر ، والحذف يعني الإيحاء بالكلمة وهو أهم من الكلمة ، وإلا لكان الحذف ضربا من العبث ، فالبديل هنا هو ما يطلق عليه بعض الباحثين (المسافة الزمنية) التي تحل محل الكلمة ، فالعربي يستغني بقدرة خيالية فائقة عن الكلام المحذوف في لمحة . وحذف الكلام في العربية لا يعني أنه غير موجود وإنما يعني أنه مستغنى عنه بقدرة في عقل المتلقي يستطيع بها أن يتصور ذلك الكلام على الوجه الصحيح .

فالقول بأن اللغة العربية ذات طبيعة تركيبية ، و أن الفكر العربي تركيبي لا تحليلي إنما هو نتيجة عجز في عقول الناقدين أنفسهم عن إدراك أساليب العرب في الحذف والترابط والتسلسل ، لا نتيجة لعجز العربي أو العربية عن ذلك .

ولكي نضرب مثلا على أهمية الخبرة بالأساليب العربية في فهم التاريخ الإسلامي فإننا نذكر بالحديث المعروف عن افتراق المسلمين إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة .

إن من يقرأ هذا الحديث دون خبرة بالأساليب العربية يتصور أنه لا يمكن أن تقوم للمسلمين وحدة أبدا ، فما هذه الوحدة التي يمكن أن تقوم بين أمة تنقسم إلى ثلاث وسبعين

فرقة ؟ . والذي يتتبع تاريخ الأمة الإسلامية سيجد أنه قد ظهرت فيها فرق ومذاهب تصل من ناحية العدد إلى أكثر من ثلاث وسبعين ، ولكن هل يعني ذلك أن هذه الأمة لم تقم لها وحدة ؟ ولكي نتبين حقيقة ذلك علينا أن نعرف الفرق التي تكلم عليها المؤرخون للفرق في الإسلام ، يقول الإمام ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) :

"فإن قيل وهل هذه الفرق معروفة ؟ فالجواب إننا نعرف الافتراق وأصول الفرق ، وأن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق ، وإن لم نحظ بأسماء تلك الفرق ومذاهبها ، وقد ظهر لنا من أصول الفرق : الحرورية والقدرية والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية ... ثم هذه الفرق قد انقسمت إلى فرق يصل عددها إلى اثنتين وسبعين فرقة "

على الباحث أن يسأل ما قيمة هذه الفرق وما هو وزنها التاريخي ؟ إن معظم هذه الفرق لا يزيد على أنها بدعة شخصية لم تتعد زمانها ومكانها ، وقد لا تتعدى صاحبها ، وقد ذاب معظم هذه الفرق وماتت بموت أصحابها ، و لم يبق لها من ذكر في التاريخ سوى ذكرها في كتب الفرق .

فأين فرقة المعتزلة التي شغلت الناس في أيام المأمون ؟ وأين الخوارج الذين شغلوا الناس في عصر بني أمية ؟ إن الفرقة التي استمرت وصمدت وبقيت في التاريخ هي جماعة المسلمين المتمثلة في مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم الجماعة الغالبة الآن في العالم الإسلامي .

إن حديث الفرق ينبه المسلمين إلى سنة الله ــ تعالى ــ في الاجتماع الإنساني ، وهي السنة التي تقوم على الصراع الدائم والدائب بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر والنبي ﷺ لا يعد المسلمين بإبطال هذا الصراع ، وإنما ينبههم إلى استمراره في التاريخ الإسلامي بأشد مما كان عليه في الأمم السابقة ، وينبههم إلى أن ذلك الصراع لن يكون خطرا عليهم ما داموا متمسكين بالكتاب والسنة ، حريصين على جماعة المسلمين لأن يد الله مع هذه الجماعة ، والشيطان مع من يخالف الجماعة .

إن وحدة الأمة الإسلامية التي قامت على الكتاب والسنة كالنهر الجاري الواسع العريض الذي يستوعب في مسيرته الطويلة المباركة الروافد النازلة إليه من رؤوس الجبال ،

وقد تتخلف عن هذا النهر العظيم مستنقعات تتناثر على جانبيه يستقر فيها المـــاء فيفسد ويتغير ، لكن ذلك لا يعوق مسيرته ، ولا يحول دون جريانه ، وقد يتعكر في بعض المواضع ولبعض الأسباب ، لكنه لا يلبث أن يعود إلى صفائه وأن يتخلص من عكارته ، وذلك متوقف عـــلى جهود المخلصين من المسلمين الفاهمين لدينهم والعاملين به على وجهه الصحيح ، وهم دائما موجودون في كل عصر تقوم بهم الوحدة ، ويستمر بهم النهر العظيم في جريانه ، مصداقا لقوله ﷺ: " لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك " ، ومصداقا لقوله ﷺ: " مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره " .

إننا لن نفهم هذه الحقائق على وجهها ما لم نكن واعين بأساليب العربية التي نزل بها القرآن وتكلم بمقتضاها رسول الله ﷺ ودون بها سلف الأمـــة علومهم ومعارفهم .

ثالثا : **العلم الصحيح بالإسلام وعلومه الضرورية** :

تاريخ المسلمين هو تاريخ تطبيق الإسلام ، وفهم الإسلام ضروري لفهم تاريخه الذي هو التطبيق العملي للإسلام عقيدة وشريعة ، ومعرفة الخطأ والصواب من الأخبار لا يمكن أن تأتي من منهج تاريخي لا يقوم على أساس الفهم العميق لمقاصد الإســـلام عقيـــدة وشـــريعة وقواعد الإسلام العامة ، وتقويم تصرفات المسلمين السياسية والاقتصـــادية والاجتماعيـــة لا يمكن أن يتم وفق تصورات ومـــعـــايير شرقية أو غربية ، لا تتناسب مـــع ظروف الإسلام وقيمه ، وإنما لابد أن يتم وفق معايير ومنطلقات إسلامية خالصة تلائم الظـــروف التاريخيـــة للمسلمين ، فالشريعة الإسلامية هي المقياس الذي ينبغي أن نحـــاكم تاريخ الأمة الإســـلامية عليه ، حاكمين ومحكومين .

إن المذاهب الفكرية المعاصرة ليست نظما إنسانية عامة ، بل هـــي مفاهيم خاصـــة بأهلها الذين ابتدعوها وقد قامت هذه النظم على أساس تحولات تاريخية في أوربـــا ، ومـــن الحيف والجور على تاريخ الإسلام أن نحاكمه بناء عليها .

فعلى من يريد مناقشة تاريخ المسلمين ، والحكم عليهم سلبا أو إيجابا ، أن يقـــوم بذلك من خلال تطبيق المفاهيم و الأحكام الإسلامية عليهم في العقيدة والشريعة والأخلاق و

الآداب والسلوك والمعاملات ، وبمقدار تطبيقهم لأحكام الإسلام يكون الحكم عليهم أساؤا أم أحسنوا ، ويمكن عندها الحكم على مدى سلامة تصرفاتهم في شئون السياسة والحكم والمال ، وهذا لا يتأتى إلا ممن رزقه الله ــ تعالى ــ فقها في الدين يمكنه من فهم كيف تجري الأمور على وجهها الصحيح .

ولكي تتضح لنا هذه النقطة فلنضرب على ذلك مثالا ، وهو (حد الردة) فهذا الحكم الإسلامي يتعرض كغيره من الحدود الإسلامية إلى هجوم حاد من المتأثرين بالفكر الغربي الذي يسمونه حقوق الإنسان ، ولذلك ينظرون إلى مثل هذا الحد على أنه اعتداء على حق الإنسان في حرية الدين ، إن الإسلام يقرر أن لا إكراه في الدين ، ومع ذلك نجد أن الرسول ﷺ يقول : " من غير دينه فاقتلوه " .

نحن هنا لا ننتظر من الغربي الملحد أو النصراني أن يقر بهذا الحكم الإلهي ولكن الذي يحز في النفس هو أن يجدوا من المسلمين من يردد اتهاماتهم ، أما نحن المسلمين فليس لنا إلا أن نرتضي حكم الله ونعلم أن الله ــ تعالى ــ لا يظلم أحدا ، فهو بتشريعه هذا الحد يتعبدنا به ، فليس لنا إلا أن نقول سمعنا وأطعنا .

ومثل هذا الحكم قضية الخروج على الإمام فالمؤرخ المتأثر بالفكر الغربي ينظر إلى مثل هذا الأمر على أنه ثورة في سبيل الحرية وضد الاستبداد ، بينما ينظر الإسلام لهذه القضية على أنها فتنه وشر وتفريق للكلمة ، يستحق من يقوم بها أن يقام عليه الحد كما في حديث الرسول ﷺ : " من أتاكم وأمركم جميع على رجل منكم يريد أن يفرق كلمتكم فاقتلوه ".

رابعا : **المعرفة الصحيحة بتاريخ العرب وحياتهم قبل الإسلام** :

لقد تعرض تاريخ العرب قبل الإسلام لعملية تشويه تاريخية عن جهل في بعض الأحيان وعن عمد وسوء قصد في أكثرها ، ويرجع هذا التشويه إلى عوامل كثيرة أهمها سوء الفهم الناتج عن نقص الأخبار ، أو عن عدم فهمها على وجهها الصحيح ، وإخراج الخبر عن سياقه التاريخي ، أو بسبب الفهم الخاطئ لبعض المصطلحات الإسلامية التي تصف العرب قبل الإسلام كالأمية الذي فهم على أنه يعني عدم العلم ، مع أن هذا المصطلح يعني عدم المعرفة بالكتابة إلا أنه لا يعني عدم العلم مطلقا ، فالعلم لم يكن متوقفا على الكتابة وحدها بل له

وسائل متعددة منها الرواية ، التي كانت وسيلة العرب في نقل علومهم ومعارفهم ، وقد اعتمد الإسلام على الرواية وسيلة لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، بل إن المسلمين بعد شيوع الكتابة ما كانوا يعترفون بقيمتها إذا خالفت الرواية .

ومثله مصطلح الجاهلية التي فهم منها أنها ضد العلم ، والجاهلية في اصطلاح الإسلام تأتي على مدلولين :

أحدهما : أنها وصف لحالات نفسية وأفعال يجب أن ينظر إليها في ضوء أحكام الإسلام كلا على حدة كوصف رسول الله ﷺ رجلا "بأنه امرؤ فيه جاهلية " .

و الثاني : يقصد به الفترة التاريخية التي سبقت الإسلام وهي تشمل ما يناقض الإسلام من شرك وعادات جاهلية ، كما تشمل ما لا يتعارض معه من أعراف ومعاملات ، وقد قال ﷺ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

كما يكون التشويه بتطبيق بعض المفاهيم والمصطلحات الغربية على هذا التاريخ ممن ليست له دراية سليمة وخبرة جيدة به ، كالبدائية والحضارة وغيرها .

ولقد أسهم اليهود والشعوبيون قديما في تشويه تاريخ العرب قبل نزول القرآن ، وبالغوا في ذلك لتحقير العرب والتقليل من شأنهم لضرب الإسلام من وراء ذلك ، على أساس أن الإسلام إنما هو دين يصلح لأمة من الأعراب لا علم لهم و لا أدب ولا أخلاق ولا مدنية ولا حضارة ، فكان مناسبا لحياتهم البدائية المنحطة ، ليرتقي بهم إلى أدنى درجات المدنية حتى يقتربوا من الأمم التي سبقتهم في الرقي والحضارة ، وهو بعد ذلك غير مناسب للأمم المتحضرة المتمدنة التي سبقتهم ، ثم جاءت الصليبية الحديثة لتكمل هذا التشويه ، فالعرب في رأيهم مجموعة من القبائل السذج المتوحشة جمعتهم الصدفة العمياء تحت قيادة زعيم قبلي همجي متحمس نجح في ظروف تاريخية مواتية في اكتساح العالم المتحضر في عصره .

إن فهم تاريخ العرب قبل الإسلام على وجهه الصحيح ضروري لفهم الإسلام فهما صحيحا وفهم تاريخه وفهم الظروف الاجتماعية التي تعامل معها . لذلك شاء الله أن يحفظ لنا الكثير من تاريخ هذه الفترة ، والذي يجهله كثير من الناس هو أن الله ــ تعالى ــ قد حفظ لنا ــ بحفظ القران الكريم ــ تاريخ هذه الفترة ، وذلك لأن فهم معاني القران الكريم

لا يتم إلا بفهملسان العرب ومنطقهم واصطلاحهم ، لذلك حرص المسلمون ـــ في إطار سعيهم لفهم الكتاب والسنة ـــ إلى حفظ لغة العرب وأشعارهم وأخبارهم وحكمهم وأمثالهم ، وهي تكل وثائق هامة لتسد النقص في الأخبار ، وتعين على فهم هذا التاريخ على وجهه الحقيقي . ولكن هذه الوثائق تحتاج لمؤرخ خبير بلغة العرب وشعرهم ليستنبط منها علوم العرب ومعارفهم .

خامسا : **معرفة حالة الأمم الأخرى قبل الدخول في الإسلام** :

إن فهم حال الأمم والشعوب التي دخلت في الإسلام قبل دخولها في الإسلام وبعده ضروري لفهم تاريخ الإسلام لكي نعرف أثر الإسلام في تحويل هذه الشعوب بعد دخولها فيه ومعرفة ما أخذت من الإسلام وما أخذ الإسلام منها ، وما مدى التغيير الذي أحدثه الإسلام فيها وتحديد قيمة هذا التغيير ، في حدود الظروف والعوامل المؤثرة في التاريخ .

فالإسلام لا يقوم على إلغاء سنن الله العاملة في التاريخ ـــ ولو أراد الله ذلك لكان ـــ لكننا يجب أن نعلم أن مدى التغيير يتوقف على نوع التفكير ومدى تغلغل العادات الفكرية والتقاليد الاجتماعية ، ومدى انحراف هذه العادات والتقاليد عن خط الفطرة السليمة .

سادسا : **معرفة أحوال الرواة** :

إن من خصائص التاريخ الإسلامي إسناد رواياته إلى أصحابها عبر الأجيال المتلاحقة وهذه الطريقة تدعو إلى فحص ما في الكتب القديمة بدقة وتمحيص وفقا للمنهج العلمي الفريد في الجرح والتعديل المعروف لدى علماء الحديث ، فالمؤرخون الأوائل اعتمدوا على دراسة حال رواة الأخبار أو ما يعرف بالأسانيد الذين هم الوسطاء بين الحقيقة التاريخية والمؤرخ .

وهذه الطريقة كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليفه ، و من ناحية أخرى اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث في الجرح والتعديل بالكشف عن رواة الحديث والتمييز بين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب والاختراع في الحديث ، وقد بين العلماء هذه الصلة بين التاريخ والحديث في قولهم إنه لم يستعن على الكلام في الحديث بمثل التاريخ.

لقد بنى علماء الحديث منهجا كاملا لتصحيح الخبر عن النبي ﷺ يصح تطبيقيه على

التاريخ الإسلامي ، فقد اهتم علماء الحديث بالخبر المروي بسلاسل الإسناد وتفقدوا أحوال الرجال ، وذهب علماء الجرح والتعديل لاشتراط صفتين في الراوي لقبول حديثه هما العدالة والضبط ، والعدالة تعني الالتزام بالإسلام فهما وعملا وتطبيقا وأن يكون عاقلا سالما من أسباب الفسق بريئا من خوارم المروءة ، والضبط هو أن يكون ذكي الفؤاد قوي الحافظة عند التحمل وعند الأداء دقيق العبارة بعيدا عن الخطأ الفاحش والغفلة .

ولقد ترك لنا علماؤنا الأوائل موسوعات كاملة في تاريخ الرواة ومن أراد أن يعرف تاريخ الإسلام فعليه أن يعود إلى هذه الموسوعات لمعرفة أحوال الرواة حتى يؤسس بنيانه على هدى من الله ، فقد ابتلي التاريخ الإسلامي بأمثال أبي مخنف لوط بن يحيى ، وجابر الجعفي ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيرهم من لا تخفى حقيقتهم على من ينظر في كتب التاريخ وكتب الرجال ، وقد يقول قائل إننا بتطبيق هذا المنهج ـــ منهج المحدثين ـــ على التاريخ نقضي على قدر كبير منه ، ونقول :

١ـــ هناك عشرات من النصوص التاريخية في غير كتب التاريخ ، ككتب الحديث والتفسير والطبقات والتراجم .. يمكن أن تؤلف في مجموعها مع ما صح من الروايات في كتب التاريخ مادة تاريخية وافية .

٢ـــ لسنا بحاجة إلى روايات لا نثق بها وأحداث لم تثبت .خصوصا إذا كنا نتحدث عن تاريخ الفترة النبوية وفترة الصحابة التي هي تطبيق للإسلام لا يجوز أن نأخذها إلا من طريق صحيح .

٣ـــ إن علماءنا بتدوينهم روايات الكذابين فإن ذلك لا يعني أنهم يقبلونها ، ولكنهم يروونها على طريقتهم في الرواية بالإسناد وشعارهم " من أسند لك فقد حملك " .

لكننا نجد من لا علم عنده بطريقة المسلمين في رواية الأخبار وتمحيصها من المستشرقين وتلاميذهم يسعون لإبراز مثل هذه الروايات وتضخيمها وكأنها هي التاريخ الإسلامي الصحيح .

سابعا : **القدرة على المقابلة والترجيح والاستنباط** :

على المؤرخ ألا يقتصر نظرة على الخبر بل لابد أن ينظر إلى أبعاده فالحكم على الخبر

واستنباط الأحكام منه مسألة ليست في مقدور كل أحد ، وهي من المسائل الخطـــيرة الـــتي ينبغي ألا يتكلم فيها إلا بعلم وعدل ، وللمسلمين طرقهم في إثبات الأخبار وردها واستنباط الأحكام منها لا تتأتى إلا لمن عرف طريقتهم ، حتى لا يقع المؤرخ في إنكار بعض الحقائق أو إثبات روايات تردها الحقائق الثابتة ، وقد اهتم علماؤنا بهذا المنهج وطبقوه .

فهذا مالك ـــ رحمة الله ـــ يقول في الذين يقعون في أصحاب رسول الله ﷺ: " إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ فلم يمكنهم ذلك ، فقدحوا في أصحابه ، حتى يقال : رجل سوء .. لو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين ".

ويقول الخطيب البغدادي في كتابه (الكفاية في علم الرواية) : " عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن ..ثم أورد نصوصا مرفوعة واستشهد بها على قوله ثم قال : " فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعـــالى لهـــم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له ، ثم قال " وهذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء . ثم روى بسنده إلى أبي زرعة الرازي ـــ رحمة الله ـــ قال :

" إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة ".

وذلك أن الخبر لا يمكن فهمه فهما صحيحا إلا بمعرفة الظروف المحيطة به ، ومعرفـــة دلالته الخاصة ، وما يمكن أن يوحي به من أحكام تستنبط منه ولو بتأويل بعيد ، وقد يفســـر بعض الأخبار بعضا ، وقد يرد أحدها لمعارضته أقوى منه ، وكل ذلك مـــدون في ضـــوابط المعرفة في الفكر الإسلامي ، طبقها العلماء المسلمون على أحاديث الرسول ﷺ من حيـــث الدراية والرواية ، واستنبط الفقهاء منها أحكام الشريعة الإسلامية ، وطبقها مؤرخو الإسلام الكبار كالذهبي وابن كثير وابن تيمية على الأخبار المروية في التاريخ الإسلامي ، ومن شـــاء مثالا على ذلك فليقرأ مناقشة ابن كثير لأخبار ماجرى بين الصحابة الكرام من نـــزاع ، أو ليقرأ ماكتبه ابن تيمية في كتابه الجليل (منهاج السنة النبوية) .

ثامنا : **القدرة على معرفة المصادر والمراجع الخاصة** :

يقول رسول الله ﷺ : " كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع " ، ونحن نستطيع أن نقول كفى بالمؤرخ غلطا أن يعتمد على كل كتاب تاريخي ، فتاريخ الأمة الإسلامية كتبت فيه آلاف الأسفار قديما وحديثا ، وليست كلها على قدر متساو من الثقة بها وبمؤلفيها ، ولذلك على المؤرخ أن يعتمد على المصادر الصحيحة لتاريخ الإسلام ، وكما رأينا أن تاريخ العرب قبل الإسلام تعرض لعملية تشويه بسبب عدم معرفة المصادر الصحيحة ، فكذلك نجد أن تاريخ الإسلام تعرض للتشويه نفسه وللسبب نفسه .

إن من يريد أن يكتب عن التاريخ الإسلامي في فترة النبوة والخلافة الراشدة فعليه أن يعتمد على المصادر الصحيحة المتمثلة في كتب الحديث النبوي من مصنفات وجوامع ومسانيد ، وعلية أن يكون ذا دراية بطريقة العلماء في ترتيبها ، واصطلاحاتهم التي يتبين بها حال كل من الراوي والمروي ، واستنباط الأحكام التاريخية منها .

ومن يريد أن يكتب عن تاريخ الفترة الأموية والعباسية وهما الفترتان اللتان تعرضتا لأكبر حملة من التشويه تشن على تاريخ أمة من الأمم ، عليه أن يعتمد على روايات الموثوقين التي دونها العلماء المؤرخون الكبار في موسوعاتهم التاريخية ، كتاريخ الطبري ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، وسير أعلام النبلاء له ، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها ، مع الحرص ألا يروي عن المصادر المشبوهة ككتب المبتدعة كمروج الذهب للمسعودي و تاريخ اليعقوبي ، والأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، وكتب الأدب والمسامرات كأغاني أبي الفرج ورسائل إخوان الصفا وغيرها .

بالإضافة إلى ما سبق على المؤرخ أن يحرص من كتب المستشرقين ومن نحا نحوهم من درس على مناهجهم وتأثر بها ، فمنهج المستشرقين براق خادع يتميز بالفهرسة والترتيب والتبويب وإطلاق الأحكام الجازمة القاطعة بصورة تجعل القارئ غير الخبير ينخدع بها ظنا أنها إنما صدرت عن علم تام ويقين لا يتطرق إليه الشك بوجه من الوجوه . من هؤلاء (جولد سيهر) ومرجليوث ولامنس ورينان ، وأشباههم ، كما ينبغي الحرص من كتب المستغربين كأمثال الفتنة الكبرى وعلي وبنوه لطه حسين ، ومحمد رسول الحرية ، والحسين ثائرا وشهيدا

لعبد الرحمن الشرقاوي ، وعبقريات العقاد ، وما كتبة جواد على عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، وكتابات نصارى العرب كلويس شيخو الذي كتب كتابا عن شعراء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام بعنوان (شعراء النصرانية) أدخل فيه الكثيرين ممن لم يثبت أنهم نصارى ، وروايات تاريخ الإسلام لجرجي زيدان وغيرهم .

تاسعا : **فهم الظروف التاريخية لكل فترة** :

إن من أراد أن يكتب عن عصر من العصور فلا بد أن يتصور حياة ذلك العصر بأخلاقياته وصفاته وعاداته ، حتى يستطيع أن يصدر الأحكام عليه ، وتكون عنده القدرة على نقد الروايات والمتون التي بين يديه من خلال موافقتها أو مخالفتها لحال ذلك العصر ، فمن الخطأ لمؤرخ يعيش في عصر الأنانية وحب الذات وخلع ربقة الدين ، وتقديم المصلحة الشخصية على مصالح الأمة ، وعد الاعتبار بالمثل والقيم والأخلاق في سبيل اللذات والمصالح الشخصية ، مثل هذا المؤرخ يقع في الخطأ حين يقيس على ذلك عصر صدر الإسلام ، عصر المسؤولية ومراقبة الله في السر والعلن ، والمنشط والمكره ، عصر بذل المال والنفس والولد في سبيل الله ، لإقامة دين الله ونصرة الأمة الإسلامية .

عاشرا : **فهم العلاقات الدولية للمسلمين فهما صحيحا** :

إن فهم العلاقات الدولية للمسلمين فهما صحيحا من مصادرها الصحيحة خصوصا من كتب أهل لسنة والجماعة أمر ضروري لفهم بعض الأحداث التي تقع في تاريخ الأمة الإسلامية ، وسوف نضرب على ذلك مثلا مسألة ترجمة كتب الفلسفة اليونانية للغة العربية ، في عصر المأمون الذي يعده كثير من المؤرخين العصر الذهبي للحضارة الإسلامية ، وهو في الحقيقة بداية الانحدار العقدي في الأمة الإسلامية الذي تبعه الانحدار السياسي والعسكري حتى تسلط على الأمة أعداؤها وسقطت بذلك الخلافة العباسية نفسها .

ومثال آخر هو موقف المؤرخين الأوربيين من الدولة العثمانية ، فالدولة العثمانية وقفت سدا منيعا أمام أطماع أوربا في العالم الإسلامي عدة قرون ، بل نقلت المعركة إلى قلب أوربا نفسها ، ولذلك يقف المؤرخ الأوربي وتابعه من المستغربين من الدولة العثمانية موقف العداء السافر ولا تكاد تجد أحدا منهم يتحدث عنها بخير حتى أولئك الذين يطلق

عليهم منصفين .فما بالك بالمتعصبين منهم فهذا المستشرق الحاقد توينبي يبث سمـــوم حقـــده على الأتراك حتى بعد أن تمكن الأوربيون من هزيمة العثمانيين ومساعدة عميلـــهم اليهـــودي مصطفى كمال في إلغاء السلطنة العثمانية ، وتحويل تركيا إلى دولة لا دينية ، تطبق القـــوانين الأوروبية ، وتلغي اللسان العربي ، وتتخلى عن الزي الإسلامي ، ومع ذلك كله لم يســـتطع هذا وأمثاله نسيان مافعله بهم العثمانيون في سالف الزمان ، ففي محاضرة له ألقاها في بيروت سنة ١٩٤٧م يقول في شماتة واضحة : " ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم ـــ وهو شيء سهل نسبيا في مجال الإصلاح الدستوري ـــ بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامي [يعني السلطان العثماني] وألغت منصبه ، وجردت الـــدين المســـلمين وحلت منظماتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب ، وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التي تمنع لابسيها من أداء شعائر الصـــلاة الإســـلامية بأكملها ، بخاصة في السجود ، **وكنست !!** الشريعة الإسلامية بأكملها ، وتبنـــت القـــانون المدني السويسري بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالي ، وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليهما في المجلس الوطني ، وغيرت الأحرف العربية بـــأحرف لاتينية ، وهذا أمر لم يتم إلا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبي العثماني القـــديم ..... ويجب على المراقب الغربي أن يراعي حدود اللياقة فلا يغالط ولا يسخر ، لأن مـــا يحـــاول **المقلدون** الأتراك القيام به هو تغيير وطنهم ومواطنيهم مما هم فيه ، إلى حالة كنا نحن ـــ منذ التقاء الغرب بالإسلام ـــ ننتقدهم لعدم وجودها طبيعة فيهم . وهـــاهم حـــاولو ـــ ولـــو متأخرين ـــ إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربي ..... وعندما نـــدرك تمامـــا هدفهم الذي رموا إليه ، **لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة : هل يبرر هذا الهدف حقا الجهـــد الذي بذلوه في صراعهم لبلوغه ؟؟؟** ... من المؤكد أننا لم نكن نحب التركـــي التقليـــدي المسلم (المتحمس) الذي كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من علٍ على أننا فريسيون زناديق! ويحمد الله على أنه لم يجعله مثلنا . وبما أن التركي التقليدي القديم كان يعتبر نفسه من طينـــة خاصة ، حاولنا أن نحط من كبريائه ، بتصوير هذه **الطينة الخاصة** شيئا ممقوتـــا ، وسمينـــاه (التركي النكرة) .. إلى أن استطعنا أخيرا أن نحطم سلاحه النفسي ، وحرضناه على القيـــام

بهذه الثورة **المقلدة** التي استهلكها الآن أمام أعيننا .. والآن بعد أن تغير التركـــي بتحريضـــنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلا لنا وللشعوب الغربية مـــن حوله .. الآن نحس نحن بالضيق والحرج ، بل ونميل إلى الشعور بالسخط والحنق ... وبإمكان التركي أن يجيبنا أنه مهما فعل فهو مخطئ في نظرنا ، وهو [أي التركي] قادر على ترديـــد مقطع من كتابنا المقدس على مسامعنا . يقول :

(لقد نفخنا معكم في القرب فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم تبكوا) !

.. على كل حال قد يكون انتقادنا للأتراك فظا وغير لائق .. ولكن لـــيس فيـــه أي تحامل ، ولا هو خارج عن الموضوع ؛ إذ ما الذي سيكسبه التراث الحضاري في حالة عـــدم ذهاب جهود الأتراك سدى ؟ أي في حالة نجاحهم ـــ فرضا ـــ النجاح المرجـــو ؟؟ وهـــذه النقطة تكشف **حركة المقلدين** عن نقطتي ضعفها الأصيلتين فيها :

أولاهما : أن الـــحركة المقلـــدة متبعة وليست مخترعة مبتدعة ، **لـــذا فـــفي حـــالة نجاحها ـــ جدلا ـــ لـــن تزيد إلا في كمية المصنوعـــات التي تنتجها الآلة في المجتمعـــات المقلَّدة ، بدل أن تطلق شيئا من الطاقة المبدعة في النفس البشرية .**

ثانيهما : أنه في حالة النجاح الباهت ـــ المفترض ـــ هذا ، وهو أقصى مـــا يمكـــن **للمقلدين** الوصول إليه ، سيكون هناك خلاص ـــ مجرد خلاص ـــ لأقلية ضئيلة في أي مجتمع تبنى طريق **التقليد** ... ومـــآل الغالبية هـــو تضخيم عـــدد بروليتاريا [العمال] الحضـــارة المقلَّدة " أ.هـــ